

قوانين التغير والتحول في القرآن الكريم

محاولة في سوسيولوجيا الإسلام

Change and transformation in the Koran laws
Attempt in the sociology of Islam

د/ دروش فاطمة فضيلة

أستاذة التعليم العالي، المركز الجامعي لتيبازة.

ملخص:

التغير سنة من سنن الحياة التي أقرها الخالق عز وجل منذ النشأة الأولى. وإن تتبعنا آياته الكريمة فجلها دعوة للتدبر في أحوال تبدلت وأقوام قد مضت واستثنى الثبات والبقاء لنفسه . فمن تدبر شكر وأيقن عظمته ومن غفل، جحد وأنكر .

إن أول آية خاطب بها الله عز وجل آخر أنبيائه كانت دعوة للقراءة باسمه لأفضل ما خلق . هي دعوة للتدبر في خلقه ومخلوقاته، وهي تنبيه وإشعار باقتراب نهاية البداية وانقطاع التواصل بين الخالق والعباد.

هذه الدعوة والتنبيه شملت التبصر والنظر في المخلوق ككيان " خلق الإنسان من علق " وفي المخلوق كوحدة متحركة متبدلة " كلا إن الإنسان ليطغى " . وكشف عن عامل تبدله " إن رآه استغنى " . وأعطاه آية تمنحه التوازن " إن إلى ربك الرجعى " .

إن انشغال العلماء بالبحث في ترقية الإنسان ككيان تفوق انشغالهم بالبحث في وجوده الاجتماعي . وفي هذا تأكيد لأسبقية الوجود الفيزيقي على النفسي والاجتماعي . وتأكيد التغير والبحث في التغير يجبرنا إلى البحث في التساؤلات التالية:

ماهي آليات التحول في العلاقات الاجتماعية؟

ما هي أسباب زوال النعم وانقراض أنواع بشرية بأكملها؟

ما هي مفاتيح التوازن والتقدم؟ وعليه تضم هذه المحاولة في سوسيولوجيا الإسلام العناصر التالية:

- 1 الاتجاهات النظرية لدراسة التغير الاجتماعي :
 - 2 ديناميكية العلاقات الاجتماعية في القرآن الكريم.
 - 3 أسباب انقراض وزوال الأنواع البشرية في تاريخ البشرية .
 - 4 مفاتيح التوازن والتقدم في الحياة الاجتماعية.
- الكلمات المفتاحية: التغير الاجتماعي، التحول، العلاقات الاجتماعية

Abstract:

Change is one of the divine rules since the world is created by Allah. Most of the verses in the holy Koran invites us to reflect on situations that changed and populations that disappeared. Only Allah stays stable and eternal. Those who realized this truth are mostly thankful to Allah and those who are ignorant of this truth are destructed and denied. The first verse of the Koran addressed by Allah to his last prophet was an invitation to read on his behalf and it is an invitation to contemplate his creations and creatures.

It is also a warning and an announcement of the closing of the ending beginning and the end of the interaction between Allah and the creatures .

This call includes foresight and consideration of the creature as an entity "created man from a clot" and in creature as a dynamic changing entity "Verily, man does transgress all bounds""And detect changing factor "because he consider himself self-sufficient" ." And gave him a verse that gives him balance «Surely! Unto your Lord is the

The preoccupation of scientists searching the human entity upgrade overpass the concern of the research in the social existence.

This is an affirmation of the primacy of the physical presence on the psychological and social one . The confirmation of the change and the change in the search leads us to look at the following questions:

What are the mechanisms of transformation in social relations?

What are the reasons for the demise of the blessings and the extinction of the entire human species?

What are the balance and progress keys? this attempt in Islamic sociology includes the following elements

1 The theoretical branch to study the social changes

2dynamic of the social relations in the holy Koran.

3causes of extinction and the demise of the human species in the history of mankind.

4keys to balance and progress in social life.

تمهيد :

التغير ضروري لاستقامة الحياة البشرية واستمرارها، وقوله "كل يوم هو في شأن" (الرحمن، الآية 29) تعبير عن تغيير أحوال الناس وفق الإرادة الإلهية . إن سنة التغير والبحث في قوانين التحول والتغير لا تتنافى مع الإقرار بالقضاء والقدر، بل تؤكد وتترسخه، ويجعلنا ذلك نعتقد بكون التغير منتظم ونبحث في قوانينه " هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون" . (الجاثية، الآية29) " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا " . (المائدة، الآية 48) .

وتجذبنا في هذا السياق مقولة عبد الله بن مسعود: " إن أول شيء خلقه الله عز وجل من خلقه القلم فقال له أكتب، فكتب كل شيء يكون في الدنيا إلى يوم القيامة، فيجمع (ضم الياء) بين الكتاب الأول وبين أعمال العباد فلا يخالف ألفا ولا واوا ولا ميما. " (ابن قيم الجوزية،، 2004 ص 16)

إن الاعتقاد المطلق بالقضاء والقدر لا يتنافى مع العمل بالأسباب والسعي من أجل الكسب وتحسين الظروف " فأما من أعطى وأنقى وصدق بالحسنى فسنسیره لليسرى وأما من بخل

واستغنى وكذب بالحسنى فسنيصره للعسرى". (الليل 5 - 10). وتؤكد الأحاديث النبوية أن القدر السابق، لا يمنع العمل

ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد، ومن الأحاديث التي تؤكد هذا المعنى قوله ﷺ: "لا على أمر قد فرغ منه قد جرت به الأقلام ولكن كل ميسر". وقوله عليه أفضل الصلاة والتسليم: "أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز". ونجد في هذا الحديث دعوة ثمينة للتغيير وترقية الذات ورفض الاستسلام. وكان النبي صلوات الله عليه وسلم، يحرص على إخبار الصحابة بأن القدر سابق حصوله يكون بالأسباب وأن العبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه ومكن منه وهى له وكان يرشدهم وأتمته إلى أمرين : الإيمان بالأقدار فانه نظام التوحيد والإتيان بالأسباب التي توصل إلى خيره. (ابن قيم الجوزية، 2004)

إن التغير سنة من سنن الحياة التي أقرها الخالق عز وجل منذ النشأة الأولى. وإن تتبنا آياته الكريمة فجلها دعوة للتدبر في أحوال تبدلت وأقوام قد مضت واستثنى الثبات والبقاء لنفسه. فمن تدبر شكر وأيقن عظمتة ومن غفل، جحد وأنكر.

إن أول آية خاطب بها الله عز وجل آخر أنبيائه كانت دعوة للقراءة باسمه لأفضل ما خلق. هي دعوة للتدبر في خلقه ومخلوقاته، وهي تنبيه وإشعار باقتراب نهاية البداية وانقطاع التواصل بين الخالق والعباد.

هذه الدعوة والتنبيه شملت التبصر والنظر في المخلوق ككيان "خلق الإنسان من علق" وفي المخلوق كوحدة متحركة متبدلة" كلا إن الإنسان ليطغى ". وكشف عن عامل تبدله "إن رآه استغنى ". وأعطاه آية تمنحه التوازن " إن إلى ربك الرجعى ". (العلق) (اسماعيل ابن الكثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء الرابع، ص 564، 565)

إن انشغال العلماء بالبحث في ترقية الإنسان ككيان مادي تفوق انشغالهم بالبحث في وجوده الاجتماعي، وفي هذا تأكيد لأسبقية الوجود الفيزيقي على النفسي والاجتماعي ولكن تعقد المجتمع المعاصر وتشعب علاقاته الاجتماعية وانتشار المشكلات الاجتماعية يفرض على العلماء والباحثين والمفكرين الإلمام بكل جوانب الحياة، وعليه نطرح التساؤلات التالية:

ماهي آليات التحول في العلاقات الاجتماعية في القرآن الكريم؟

في أي اتجاه ينحو التغيير، هل هو نسبي أو من شأنه أن يكون مطلقاً؟ ما هي مفاتيح التوازن والتقدم بالرجوع إلى القرآن الكريم؟ وقبل أن نبحث في هذه الإشكالية، كان من الضروري الرجوع إلى أهمية موضوع التغيير الاجتماعي في الدراسات السوسيولوجية. إن انشغالنا بالبحث في قوانين التغيير الاجتماعي بالرجوع إلى القرآن الكريم ليس بحثاً توجيهياً أو خطاباً وعظياً بل محاولة علمية تسعى من خلالها الإجابة عن بعض الأسئلة المرتبطة بنظرية التغيير الاجتماعي وهي بالدرجة الأولى محاولة في سوسيولوجيا الإسلام.

أولاً، الاتجاهات النظرية لدراسة التغيير الاجتماعي :

لا مبالغة إذ قلنا أن جل الدراسات السوسيولوجية تنطلق من رؤيتها لعملية التغيير الاجتماعي ولا يمكن أن تؤسس لأي قانون اجتماعي خارج نطاق التغيير. ويذهب هنري مندراس (Henri Mendras , Michel Forsé 1983, p7.) أنه لا يوجد نظرية عامة حول التغيير الاجتماعي لأنها ستكون نظرية عامة للتاريخ.

ورصد ريمون بودون، أربعة أنواع من الدراسات حول التغيير الاجتماعي ، Rymond Boudon (1984, p22) : النوع الأول، يبحث في الاتجاهات ومثاله دراسة أوجست كومت حول المراحل الثلاث أي اللاهوتية، الميتافيزيقية والوضعية. النوع الثاني، يبحث في القوانين التي تتحكم في التغيير وأهمها:

. القوانين الشرطية، ومثاله دراسة بارسونز ومن نماذج القوانين الشرطية التي توصل إليها: التصنيع يؤدي إلى إيجاد عائلة نووية.

. القوانين البنوية، والمقصود بها أن نظام اجتماعي يتميز في حالة "س" ببنية "س ع" لنبحث في وضع النظام في حالة "س1". ومثاله، إذا كانت البنية شبه إقطاعية في "س" فإن أي اكتشاف جديد يكون في الغالب مرفوضاً في حالة "س1". ومن نماذج هذه القوانين يذكر بودون دراسة نوركس¹ حول حلقة الفقر. فحالة الفقر في "س" لها كل الظروف أن تبقى كذلك في "س1" ما عدا في حالة تدخل طارئ، كون الفقر يؤدي إلى عدم القدرة على الادخار ومن ثم على الاستثمار وعليه بقاء الفقر .

النوع الثالث من الدراسات يبحث في شكل التغير، وتهمل هذه الدراسات محتوى التغير أي ماذا يتغير وتهتم بكيف يكون التغير . والإشكال يصبح إذا كان نظام اجتماعي يتميز في حالة "س" ببنية "س ع"، كيف يصبح حال النظام في "س1".

النوع الرابع من الدراسات، يبحث في أسباب التغير ومثاله دراسة ماكس فيبر حول الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية وهذا النمط من الدراسات هو الأكثر شيوعا في علم الاجتماع. وفي دراسة عوامل التغير، هناك من يرجح فكرة العامل المحدد وهناك من يأخذ بتعدد العوامل. وتتراوح العوامل المسببة في التغير وفق هذه النظرية في العوامل التالية : العامل التكنولوجي، العامل الديمغرافي، العامل الايكولوجي، العامل الاقتصادي، العامل الثقافي. ومن الأسئلة العملية التي تطرح في هذا السياق: ما هو العامل الأكثر تأثيرا في عملية التغير؟ من هذا السؤال الإشكالي، يستدرج غي روشيه (Guy Rocher, , 1979 , p36) ستة أسئلة تحل ضمن إشكالية التغير: ماذا يتغير؟ . كيف يحدث التغير؟ أي مسار يتخذه، هل هو مستمر؟ منظم؟ منقطع؟ على فترات؟ هل يواجه مقاومة قوية، أين تكمن هذه المقاومة؟ . هل التطور بطيء؟ سريع؟ مفاجئ أم تدريجي؟

. البحث في العوامل المحدثة للتغير، الشروط المناسبة والغير مناسبة للتغير .
من هم الأفراد الفاعلين الذين يدفعون للتغير؟ إلى ما ذا يرمزون؟ من هم الفاعلين المعارضين للتغير؟

. البحث في المسارات المستقبلية للأحداث والمسارات التي يسلكها المجتمع في المستقبل القريب والبعيد ومنه إمكانية التنبؤ .

ويولي وليام أجبرن لعامل الاختراع الأهمية البالغة ويعتبر أصل الاختراعات وتأثيرها مسائل متصلة أشد الاتصال بالتغير الاجتماعي . ولتيسير السبيل إلى الاختراع يجب من توفر العناصر الأربعة التالية: الحاجة و القاعدة الثقافية و القدرة العقلية والتراث.
ويولي سوروكين في دراسته لعوامل التغير الأهمية القصوى للايدولوجيا واعتبرها سابقة للعوامل الأخرى

واعتبر العوامل الأيديولوجية ضرورية لتكوين الاقتناعات اللازمة لجعل التغيرات التكنولوجية ممكنة القبول في المجتمع .

ومن أشهر الدراسات حول التغير الاجتماعي دراسة هنري مندراس الخاصة بالمجتمع الفرنسي والتي انتهى فيها بوضع مقولات عامة أو شبه قوانين يمكن اعتمادها في دراسة التغير . أول هذه المقولات، التغيرات التي أحدثها إدخال الذرة الهجينة في الزراعة والتي أنتجت آثارا تراكمية معقدة كونها تتطلب عناية أكثر من البذرة التقليدية وتستلزم تقنيات مختلفة وقد نتج عن إدخال الذرة الهجينة، توسيع المساحات الزراعية وزيادة في المحصول وازدادت العائدات والأموال مما سمح بتجهيز جديد للمزارع وتحديث المنازل . وتؤدي زيادة العائدات إلى انخراط المزارع بصورة وثيقة في النظام الاقتصادي المحيط .

ومنه استنتج مندراس، أن التغير في الجزئيات الصغيرة من شأنه أن يؤدي إلى تغير بنيوي. أما جورج بالاندي فيسلم بفرضية كون التطور الاقتصادي لا يتحقق إلا في مجال مؤيد للتطور ، أين يرغب مجموع السكان في التطور ولا يرغب أي مجتمع في التطور إذا لم يدرك أن التطور ممكنا.

ويصنف بالاندي (Balandier Georges, 1971, p230) التغير إلى صنفين : التغير الخارجي المصدر exogene والتغير الداخلي المصدر endogene

التغيرات الداخلية ينصح بها في دراسة المجتمعات المتخلفة ويتم تناولها من ثلاث نواحي :

. التعديلات الواقعة من جراء العلاقة بين المجتمع والإطار الطبيعي له.

. التعديلات الناتجة عن هشاشة بعض التوازنات الاجتماعية .

. التعديلات الناتجة عن الابتكارات.

أما التغيرات الخارجية المصدر فيتم البحث فيها في الفروقات بين المجتمعات وكذا في مدة التغيرات وحجمها.

ونظر علماء الاجتماع المسلمين لموضوع التغير الاجتماعي وأهمهم مالك بن نبي (متوفي عام 1974)، و الذي يفرق بين التغير الاجتماعي والتغير الاجتماعي. فيرى أن التغير

يتجلى من خلال تدخل الإنسان بالتخطيط، أما التغير فهو ظاهرة تلقائية وتشمل التغير نحو الأسوأ أو الأفضل.

ويعد التغيير الاجتماعي عملية بنائية تستهدف إقامة حضارة بواسطة نظام من العلاقات الاجتماعية. فالتغيير الاجتماعي بالضرورة من صنع الأشخاص، والأفكار، والأشياء جميعاً. ويرى بن نبي أن الفكرة الدينية هي الأساس والمحرك الفاعل لأي حركة تغييرية، كما يرى أن آلية الحركة التاريخية إنما ترجع في حقيقتها إلى المجموع من العوامل النفسية التي تعتبر ناتجة عن بعض القوى الروحية وهذه القوى الروحية هي التي تجعل من النفس المحرك الجوهري للتاريخ. وكان يتوقف عند لحظة دخول الدين إلى المجتمع ليوضح الأثر الذي تحدثه الفكرة الدينية في البناء الاجتماعي للمجتمع البدائي وكيف يتحول إلى مجتمع تاريخي. و جدير بالذكر أن مالك بن نبي يرى أن قانون التغيير الاجتماعي هو القانون الدوري للحضارة، وينطلق في شرح هذا القانون من حقيقة جوهرية في التاريخ البشري هي (دورة الحضارة) فكل دورة محددة بشروط نفسية زمنية خاصة بمجتمع معين. ووفق هذا القانون فإن الحضارة تهاجر وتنتقل إلى بقعة أخرى تبحث عن شروطها، وهكذا تستمر في الهجرة وتستحيل خلالها إلى شيء آخر، بحيث تعد كل استحالة (تحول) تركيباً خاصاً للإنسان والتراب والوقت. والحضارة عنده تمر بمراحل ثلاث: الميلاد، والأوج، والأفول وهي تتفق مع مراحل الروح، والعقل والغريزة. ويرى أن القانون الدوري ليس حتمياً ويمكن للإنسان أن يتدخل في أي مرحلة من مراحله.

ثانياً: ديناميكية التحول في العلاقات الاجتماعية في القرآن الكريم:

عرف المجتمع الجزائري في العشرية الأخيرة من القرن الماضي أي ما بين 1990. 2000 أحداث عنف وإرهاب أشبه بحرب لا عنوان لها. راح ضحيتها ما يقارب مائتي ألف ضحية وفق إحصائيات غير رسمية، معظمهم من الشباب. أثناء ذلك اختلطت المفاهيم والتفسيرات ولكن السؤال الجوهري كان مفاده كيف يمكن إيقاف هذا الزلزال الدامي الذي يحصد الأرواح ويخرب البلاد وما هو إلا من صنع البشر. كنت أردد دائماً الآية الكريمة "لا يغير الله ما يقوم

حتى يغير ما بقلوبهم". لما أدركته من تعاطف السكان مع الجماعات المتمردة وسكوتهم عن جرائمهم.

عايشت الأحداث عن قرب وبألم إذ كنت حينها أدرس الفرنسية في القسم الثانوي في مدينة تبعد عن العاصمة عشرات الكيلومترات وكانت منطقة ساخنة بالأحداث ومسرحا للمعارك بين الجماعات المتمردة على النظام وبين قوات الأمن الوطني ثم موضع تصفية حسابات بين الجماعات الإرهابية المسلحة. لم يسلم أحد من التهديدات، وباعتبار اللغة الفرنسية كانت من بين البنود المحظورة، كنت وزملائي في قائمة المهددين. لم أخف، وواصلت التدريس وأكثر، كنت أدم التلاميذ على الدراسة والنجاح ولكن الوالد وبتحريض من أفراد الأسرة منعي لمدة ستة أشهر من العمل بحجة حمايتي. ولكن عدت إلى العمل بعد مناقشات ومحاولات إقناع والتي لم تكن بالمهمة السهلة. الذي كان يعوز في نفسي أكثر من سمع القنابل والرصاص ومشاهدة الجثث كل صباح على حافة الطرق لامرأة رفضت ارتداء الحجاب أو لشاب التحق بالخدمة الوطنية أو لشرطي أو موظف في القضاء هو تبرير العامة لهذه الأعمال. عندما يعرف اسم المقتول يسأل عن تهمته، وكأن ذلك شرعيا. وعندما بدأت القائمة تتسع لكل التهم وكل الحرف شعر الجميع بالخطر وراحوا يفكرون في حماية أنفسهم. من الوسائل التي لجأوا إليها، الهروب إلى مدن لا يعرفهم فيها أحد، ولكن ذلك لم يكن متاحا للجميع. واتجه التفكير نحو المقاومة ورفض الهروب بدل التكتم عن الجرائم وتبريرها، وحينها سطعت بوادر التغيير وكتبت الآية الكريمة " ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " في سماء وحبال الجزائر بخيط من ذهب وكان ذلك بداية المخرج.

ومنه القانون الذي أقره الله تعالى والقائل بأن التغيير رهن بإرادة البشر أو بسلوكياتهم " له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من وال". (الرعد، الآية 11) "ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم". (الأنفال، الآية 53)

هذا القانون مرتبط بقانون آخر والقاتل بأن الخطر قد يأتي من الخارج ولكن التغيير لا بد من أن يبدأ من الداخل وعلى كل المستويات . " كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين " (آل عمران، الآية 86)

على المستوى الشخصي : يمكن أن نطبق القانون السابق على المستوى الشخصي وهذا ما تحمله برامج التنمية البشرية والتي أصبحت موضة العصر في التكوين. حيث تعمل هذه البرامج على تدريب الأفراد على استغلال قدراتهم الذاتية لتغيير حياتهم نحو الإيجاب.

ومن حقائق التغيير على هذا المستوى، أنه لا يمكن أن يحقق شخصا ما تغييرا ايجابيا إن لم تكن له إرادة قوية، إن رفض رؤية الأشياء على حقيقتها والتعصب سيمنع قطعاً أي ايجابية في التحول " قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في أذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد. " (فصلت، الآية 44) "وعلى أبصارهم غشاوة" (البقرة، الآية 7). أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة." (الجنّة، الآية 23)

. وكذلك يفعل الغرور الزائد بالشخص بحيث يرى الشخص أنه لا يخطئ، وسيجره ذلك حتما إلى الهاوية " وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل " (غافر، الآية 37)

. كما يعد الظلم من أهم المعوقات التي تمنع التغيير الصائب ، والظالم مهما تجبر فان مصيره هو الهلاك : الله لا يهدي القوم الظالمين" (الأحقاف، الآية 10) . من العثرات أيضا، الكذب على النفس وعلى الآخرين: إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب " (غافر، الآية 28). وعليه تأتي صياغة القانون التالي:

لا يمكن أن تتبدل أحوال شخص يستمر ويصر على السير في طريق ملتوي، يظلم ويصر على استمراره للظلم، يكذب ويعد الكذب وسيلة للتظليل، متكبر مغرور، يرفض مناقشة الأمور، لا يرى إلا صوب عينيه. ومصير الظالم والكاذب والمغرور لا يختلف عن مصير أمثاله السابقين.

ثالثا : اتجاه التغير و عوامل إقصاء و زوال الجماعات الاجتماعية في القرآن الكريم :

جاء القصص القرآني بنماذج تاريخية ليبين لنا اتجاه عملية التغير. فإذا كانت المخلوقات في غير طاعة الله يتجه التغير إلى تغيير الواقع الاجتماعي كله وليس جزءه" فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين" (الأنعام ، الآية 145) وقطع دابر القوم الذين ظلموا قد يتخذ شكل استبدال خلق بخلق" إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد(فاطر، الآية 16). وأول جماعة بشرية أمحاهها الله من الوجود قوم نوح في أرض العراق " وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا (الإسراء الآية 17) وكان ذلك عن طريق الطوفان " وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي" (هود، الآية 44).

كما هلك قوم عاد في عهد النبي هود عن طريق الريح الصرصر " وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما". (الحاقة الآية 6 و 7) أما قوم ثمود فقد هلكوا عن طريق الصيحة في عهد النبي صالح بعد أن عبدوا الأصنام والأنداد " فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية " .(الحاقة، الآية 5) كما هلك قوم سدوم في عهد لوط بعد تقشي اللواط وكانت آلية إقصاءهم أمطار من الحجارة " فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد". (هود ، الآية 82,83) وهلك قوم مدين في عهد شعيب بعد أن أشركوا وطغوا عن طريق الظلة و الرجفة والصيحة. " فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم " (الشعراء، الآية 189)

وهلك قوم سبأ في اليمن " فأعرضوا فأرسلنا عليهم سبل العرم وبدلناهم بجنتين ذواتي أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل" . (سبأ، الآية 16) كما هلك بنو إسرائيل في عهد سيدنا يوسف عن طريق الفاقة والهوان والذل. وهلك فرعون وجنوده وقارون وهامان في عهد سيدنا موسى عن طريق الغرق. " واترك البحر رهوا إنهم جند مغرقون" (الدخان، الآية 24) وهلك بنو إسرائيل في عهد عيسى عليه السلام وذلك بتأييد النصارى عليهم ورفع عيسى إلى السماء .

كما هلك أصحاب الفيل في مكة قبل البعثة النبوية " ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول. " (الفيل).

ويستنتج من هذه النماذج قانون إقصاء الجماعات البشرية من الوجود و أسباب زوالهم: السبب الرئيسي يتمثل في الشرك بالله. "لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك ". وتشمل أشكال الشرك عبادة الأصنام و تغيير سننه. وتكمن العوامل الأخرى في الظلم والطغيان "كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين" (آل عمران، الآية 86)

ومنه فان ما ينطبق على المستوى الشخصي ينطبق على مستوى الكل ومنه قانون وحدة آليات التغير .

رابعا : مفاتيح التوازن والتقدم

أول مفتاح هو الاعتدال والوسطية و يعد هذا المبدأ منهجا يشمل كل الجوانب، إذ يشمل علاقة الإنسان بربه، علاقته بنفسه، بالآخرين وبمحيطه. "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء ويكون الرسول عليكم شهيدا (البقرة، الآية، 110) أول سمات الوسطية ومعالمها، عدم الجنوح إلى الآخرة أو إلى الدنيا " ولا تنسى نصيبك من الدنيا . وفي أمور الدنيا فأهم مبادئها الاعتدال في الاستهلاك " والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما(الفرقان الآية 65، 66) وفي فن الكلام والمشي " وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما (الفرقان، الآية 63) ". الاعتدال يمس كذلك شؤون الحكم.

خامسا، نظرية التغير الاجتماعي في الإسلام:

القانون العلمي كما نتصوره عادة عبارة عن تلك السنة التي لا تقبل التحدي من قبل الإنسان ؛ لأنها قانون من قوانين الكون والطبيعية فلا يمكن للإنسان أن يتحداها ويخرج عن طاعتها. هذه هي الفكرة التي نتصورها عادة عن القوانين، وهي فكرة صحيحة إلى حد ما، لكن ليس من الضروري أن تكون كل سنة طبيعية موضوعية على هذا الشكل بحيث تأبى التحدي ولا يمكن

تحديها من قبل الإنسان بهذه الطريقة، بل هناك اتجاهات موضوعية في حركة التاريخ وفي مسار الإنسان تبين أن هذه الاتجاهات لها شئ من المرونة بحيث أنها تقبل التحدي ولو على شوط قصير، وإن لم تقبل التحدي على شوط طويل. ومن خلال استعراضنا السابق للنصوص القرآنية الكريمة التي أوضحت فكرة السنن التاريخية وأكدت عليها، يمكننا أن نستخلص ثلاث حقائق أكد عليها القرآن الكريم بالنسبة إلى سنن التاريخ:

الحقيقة الأولى، أن السنن القرآنية للتاريخ ذات طابع علمي، لأنها تتميز بالاطراد الذي يميز القانون العلمي. ومنه أن التغير مرتبط بشروط تبدأ من الداخل سواء أكان ذلك على المستوى الشخصي أو على مستوى الجماعة. وفرق علماء الاجتماع المسلمين بين ثلاثة أشكال للتغير الاجتماعي وهي التصاعدي والتموج والمتأرجح، والأول يمثل نمط التطور المادي والفكري والثاني يمثل تموج ظاهرة اجتماعية غيابا وعودة والثالث يمثل التأرجح بين امكانياتي التصاعد والتنازل.

(محمود الستاني، 1995، ص 165)

الحقيقة الثانية، أنها ذات طابع رباني ؛ لأنها تمثل حكمة الله وحسن تدبيره على الساحة التاريخية ومن نماذج ذلك قانون إقصاء الجماعات البشرية من الوجود.

الحقيقة الثالثة، أنها ذات طابع إنساني ؛ لأنها لا تفصل الإنسان عن دوره الايجابي ولا تعطل فيه إرادته وحرية اختياره، وإنما تؤكد أكثر فأكثر مسؤوليته على الساحة التاريخية ومثاله ما رصدناه من وجوب انتهاج الوسطية والاعتدال في كل السلوكات لتحقيق التوازن. وطرق السلوك تتحكم فيها أمور بيئية وعرفية وزمانية...وهي قابلة للتغير . (محمود البستاني، 1995، ص 167)

وإذ يجمع علماء الاجتماع على عدم وجود نظرية عامة للتغير الاجتماعي لأنها ستكون نظرية عامة في التاريخ البشري فإن القرآن الكريم صاغ نظرية اجتماعية تعد نظرية عامة وذلك حينما أراد القرآن أن يتحدث عن انكسار المسلمين في غزوة أحد بعد أن أحرزوا ذلك الانتصار في غزوة بدر قال : " إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها

بين الناس ". (آل عمران، الآية 140) وفي الآية دلالة شافية كافية تكمن في كون النصر ليس بحق إلهي للمسلمين وإنما حق طبيعي مرتبط بالشروط الموضوعية للنصر .
وتبقى هذه المحاولة المتواضعة دعوة للباحثين في مجال العلوم الاجتماعية للاهتمام وتوجيه جهودهم إلى قراءة القرآن الكريم بتدبر دون البحث عن المطابقة بين حقائق القرآن والنظريات السوسيولوجية بل الانطلاق من قناعة كون الحقيقة الربانية مطلقة وأنه من دورنا البحث عن قنوات إيصالها بحكمة ومنهجية في الأوساط الاجتماعية والمؤسساتية المختلفة.

المراجع:

المصادر:

1. القرآن الكريم

2. الإمام أبي الفداء، إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي، دار المعرفة، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة، 1989. أربعة أجزاء

الكتب:

1 ابن قيم الجوزية، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، المكتبة العصرية، بيروت، 2004

2 محمود البستاني، الإسلام وعلم الاجتماع، موسوعة الفكر الاسلامي، مجمع البحوث الاسلامية، بيروت ، 1994

3 حسين سليمان، دراسات قرآنية حول الإنسان والمجتمع، ط1، دار الفكر العربي ، بيروت، 2002

المراجع باللغة الاجنبية:

1 Balandier Georges, sens et puissance ,puf, 1971 .

2 Guy Rocher, changement social, éd, H .M .H Paris, 1979.

³Henri Mendras , Michel Forsé, le changement social tendances et paradigmes, éd, Armand colin, Paris, 1983..

4 Raymond Boudon, la place du désordre, puf, 1984..